سمـــــير فى لنـــــدن

(٣)

أخى عَلِىٌّ :

رَسَتِ الباخِرَةُ صباحاً فى ميناء تِلْبُورِى (Tillbury) بالقرب من مَصَبِّ نهر التَّامِيز فَصَعِدَ إليها (بوليس) الميناء ، ففَحَصَ جَوَازَاتِ السَّفَرِ ، وَخَتَمَهَا بِخَاتَمِ الْمُرورِ. ثُمَّ نَزَلْنَا إلى رَدْهَةِ (الْجُمْرُكِ) . وَكَانَ مَتَاعُنَا قد حُمِلَ إليها مَعَ سائِرِ أَمْتِعَةِ المسافرينَ . ورَأَيْتُ الأَمْتِعَةَ كُلَّهَا مُرَتَّبَةً فى تلك الرَّدْهَةِ الفسيحَةِ بِحَسَبِ حُرُوفِ الهِجَاء التى تَبْدَأُ بها أَسْمَاءُ أصحابِهَا ، حتى يَسْهُلَ عَلَى الْمُسَافِرِينَ الْعُثُورُ عَلَى مَتَاعِهِمْ . وَكَانَ الرِّجَالُ الْمُكَلَّفُونَ بِفَحْصِ الحقائِبِ يَسْأَلُونَ كُلَّ مسافرٍ عَمَّا إِذَا كَانَ يَحْمِلُ أَشياءَ تُدْفَعُ عليها ضَرِيبَةٌ جُمْرُكِيَّةٌ كالحريرِ ولفائفِ التَّبْغِ والروائحِ العطريَّةِ ونَحْوِهَا . فكانوا أحياناً يَثِقُونَ بما يَقُولُهُ المسافرُ ، وأحياناً يَفْتَحُونَ حقائبَهُ لِلتَّحَقُّقِ من صِدْقِ ما يَقُولُ . وَكَانُوا يُؤَدُّونَ عَمَلَهُمْ بسرعةٍ وهدوءٍ ، حتى إذا ما انْتَهَوْا من أَحَدِ المسافرينَ حُمِلَتْ حَقَائِبُهُ إلى القطارِ الخاصِّ ، وَوُضِعَتْ فى مَرْكَبِ الْمَتَاعِ (العفش) ، بعد أن يَدْفَعَ ما عليه من الضَّرِيبَةِ الجمركيَّةِ إِنْ كَانَ مَعَهُ ما يَسْتَوْجِبُ ذٰلِكَ .

وتَحَرَّكَ بِنَا القِطَارُ ، وَوَقَفْتُ أُطِلُّ من نافذةِ الْمَرْكَبِ ، وقَلْبِي يَفِيضُ بَهْجَةً وسروراً . ذٰلِكَ لِأَنِّي كُنْتُ أُحِسُّ بوجُودِي فى إنجلترا . وبِقُرْبِ وصولى إلى لَنْدَن التى طَالَمَا تَمَنَّيْتُ انْ اراهَا . لَنْدَنُ الْحَقِيقِيَّةُ لا لَنْدَن التى فى الكِتَابِ أو الْمُصَوَّرِ الجغرافِيِّ ! ! ظَلَلْتُ أُرْقُبُ عَلَى طولِ الطريقِ تلك المنازلَ الإنجليزيَّةَ الصَّغيرةَ الجميلةَ ، ذاتَ السُّطوحِ المائلةِ الحمراء ، وقد نَفَذَتْ من خِلَالِهَا مداخِنُ المدافِئِ . وَكَانَ الدُّخَانُ الْمُنْبَعِثُ منها يَمْلأُ الجوَّ ، فَيَصْبُغُهُ بلَوْنٍ رَمَادِيٍّ أَدْكَنَ . وكانتِ المنازلُ كُلُّهَا مُتَشَابِهَةً فى الشَّكْلِ والْحَجْمِ ، حَتَّى لَيُخَيَّلُ إليكَ أَنَّهَا صُبَّتْ فى قَالَبٍ واحدٍ . ولَسْتُ أَدْرِى كَيْفَ يَسْتَطِيعُ المرءُ هنا أَنْ يُمَيِّزَ بَيْتَهُ وَسْطَ تِلْكَ الْبُيُوتِ .

وَصَلْنَا إِلَى لَنْدَن بعدَ ساعةٍ من الزَّمَنِ . وكانتِ الْمَحَطَّةُ التى دَخَلَهَا القِطَارُ ذَاتَ أَرْصِفَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وتُسَمَّى مَحَطَّةَ سان بنكراس . وقد عَلِمْتُ أَنَّهَا لَيْسَتِ الْمَحَطَّةَ الوَحِيدَةَ فى لَنْدَن ، بَلْ هُنَاكَ غَيْرُهَا كَثِيرٌ . ثُمَّ رَكِبْنَا سيَّارةً إِلَى الْفُنْدُقِ الذى كَانَ يَعْرِفُهُ أَبى من قَبْلُ ، وهو لا يَبْعُدُ كثيراً عن الْمَحَطَّةِ . وقد قَالَ إِنَّهُ اخْتَارَ ذلك الْفُنْدُقَ لأَنَّهُ يَقَعُ فى وَسَطِ الْمَدِينَةِ ، ولذلك يُوَفِّرُ علينا كثيراً من الْوَقْتِ والنَّفَقَاتِ .

وَضَعَ أَبى بَرْنَامَجًا لزيارةِ الْمَدِينَةِ ، فَكُنَّا نَذْهَبُ فى الصَّبَاحِ إلى جِهَةٍ ، وبعدَ الظُّهْرِ إلى جهةٍ أُخْرَى . وفى الْمَسَاءِ إلى مَسْرَحٍ أو دارٍ من دُورِ الخيالةِ (السينما) . وَكَانَ أَوَّلَ مَا أَثَارَ دَهْشَتِي وحَيَّرَ فِكْرِي ذلك القِطَارُ الذى يَسِيرُ

تَحْتَ الأرض . وتجد محطاتِه ، فى كلّ مكان ، تتميّزُ بعلاماتٍ واضحةٍ عند مَدْخلها . هذه القُطُرَاتُ عديدةٌ جدًّا وتصلُ أطرافَ المدينةِ العظيمةِ بعضَها ببعضٍ . فكأنّما بُنِيَتِ المدينةُ من طبقتين : طبقةٍ فوق سطح الأرض وطبقةٍ فى جوفها .

يَدْخُلُ الإنسانُ إحدى محطاتِ القُطُراتِ التى تحتَ الأرض ، فيأخذُ تذكرةً من إحدى نوافذ بيعِ التذاكرِ ، أو من إحدى الآلاتِ (الأتوماتيكيةِ) المُعَدَّةِ لذلك ، ثمّ يَهْبِطُ إلى موقفِ القُطُرَاتِ . وطُرُقُ الهبوطِ إلى جوفِ الأرضِ مُتعدِّدَةٌ مُدْهِشَةٌ : فتستطيعُ أنْ تنزلَ فى المِصْعَدِ — ولعلّهُ المهبطُ فى حالتِنا هذه — كما تستطيعُ أنْ تنزلَ بوساطةِ السّلالمِ المُتحرّكةِ . وهى تتركّبُ من درَجٍ من الخشبِ تُحرّكُهُ آلةٌ غيرُ ظاهرةٍ ، فيتزلّقُ على سطحٍ مائلٍ . فإذا وقفتَ فوقَ أوّلِ درجةٍ فى أعلاهُ نزلَ بكَ إلى أسفلَ من غيرِ أنْ تُكلّفَ نفسَكَ عناءَ النّزولِ . وفى جانبٍ آخرَ سلالمُ مثلُها تتحرّكُ إلى أعلى ، إذا وقفتَ على أوّلِ سُلّمٍ فيها ، من أسفلَ ، صعدَ بكَ عشراتِ الأمتارِ من غيرِ أنْ تُحرّكَ عضواً من أعضائكَ .

وعند ما تصلُ إلى أسفلِ المحطةِ تجدُ أمامَكَ أرصفةً عديدةً مُضاءةً بالكهرباءِ ليلا ونهاراً ، فتأخذُ القطارَ الذى تُريدُهُ . ثمّ لا تلبثُ أنْ ترى نفسَكَ سائراً فى جوفِ الأرضِ تحتَ الشّوارعِ الكبيرةِ والأبنيةِ الشاهقةِ ، بل وتحتَ قعرِ النّامبز !! .

وهذه القُطُراتُ تُسيّرُها الكهرباءُ بسرعةٍ فائقةٍ وهى تنقلُ الآلافَ من الناسِ فى كلّ دقيقةٍ ، وتمدُّ بهم فى سَراديبَ مُظْلِمَةٍ رهيبةٍ ، هى عبارةٌ عن أنابيبَ من الصُّلْبِ هائلةِ الحجمِ مُقامَةٍ فى جوفِ الأرضِ . وإنّهُ ليَلَذُّ للمرءِ أنْ يقفَ بُرْهَةً بابِ إحدى تلكَ المحاطِ ، ليُشاهدَ الجماهيرَ الكثيرةَ التى تتدفّقُ منها وإليها .

وجميلٌ جدًّا أنْ يذهبَ الإنسانُ إلى إحدى دورِ الخيالةِ الكبيرةِ فى لندن تلكَ الدُّورِ التى يتجلّى البهاءُ فى كلّ مكانٍ فيها : رَدَهاتٌ فسيحةٌ قد فُرِشَتْ بأفخرِ الأثاثِ ومقاعدُ مُريحةٌ وفيرةُ العددِ قد امتلأتْ بالنظّارةِ ، وأنوارٌ وزينَاتٌ فى كلّ ناحيةٍ . والمُدْهِشُ جدًّا أنّ هذه الدُّورَ تفتحُ أبوابَها من الظُّهْرِ إلى مُنتصفِ الليلِ . وتستمرُّ فى عرضِ أشرطتِها من غيرِ انقطاعٍ ، فاذا ما انتهتْ من عرضِ البرنامجِ الموضوعِ بدأتْهُ من جديدٍ من غيرِ توقّفٍ . ولكَ أنْ تدخلَها فى أىّ ساعةٍ تشاءُ ، فتبدأُ البرنامجَ من أىّ نقطةٍ فيهِ ، وتستمرُّ حتّى ترى بأجمعِهِ . فإذا أردتَ أنْ تقضىَ فيه ساعاتٍ طويلةً ، ورأى البرنامجَ أكثرَ من مرّةٍ فإنّهُ لا يعترضُ عليكَ أحدٌ .

أمّا المسارحُ فباهظةُ الأجورِ جدًّا للمقاعدِ المُمتازةِ . وقد ذهبنا إلى أحدِها أمسِ ، فوجدْنا صفا

طويلا من الناس واقفين بانتظام أمام بابه ، ينتظرون دورهم للحصول على تذاكر المحال الرخيصة . وكان

طابور الانتظار امام احد المسارح

الصف طويلا جدا يزيد على خمسين مترا . وبعض الناس يحضرون قبل الميعاد بساعتين أو ثلاث ليضمنوا الحصول على تذاكر ، لأنه كثيرا ما تملى المقاعد ، ولم يدخل من الصف إلا نصفه . وقد يحضرون معهم أو يستأجرون مقاعد صغيرة للجلوس عليها ، كالمقاعد التى يستعملها المصورون فى الخلاء . وهم يقضون الوقت عادة فى مطالعة الصحف والمجلات والكتب حتى يأتى دورهم . ولم يرض والدى أن نقف فى ذيل هذا الصف الطويل ، بل اتجهنا إلى المدخل الكبير ، واشترينا تذكرتين بجنيه كامل .

ودخلنا يوما متنزه هيد بارك ، ذلك المكان الذى طالما سمعنا وقرأنا عنه ، فإذا به حقا فوق ما سمعنا وما قرأنا . يقع هذا المتنزه فى وسط لندن ، ويدخله الناس من أبواب متفرقة إما سيرا على الأقدام أو فى السيارات . ومساحته هائلة جدا لا تدرك لها بداية ولا نهاية . ولعل أغرب ما فيه تلك المنابر الخشبية ، وهؤلاء الخطباء الذين يقف الناس من حولهم فى حلقات واسعة ، فيستمعون إلى أحاديثهم المختلفة :

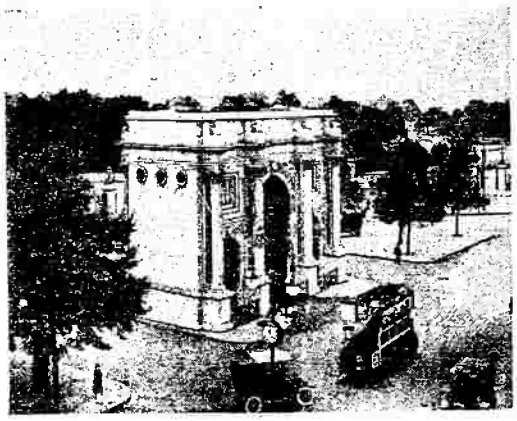

« القوس الرخامى » عند مدخل هايد بارك

هذا يناقش مسألة سياسية ، وذاك ينشر بدين من الأديان أو مذهب من المذاهب ، بينما يقف ثالث لينقد عملا من أعمال الحكومة وينددّ بها تنديدا . كل ذلك والجمهور يستمع ويناقش من غير أن يحصل ما يعكر الصفو أو يستدعى تدخل الشرط .

وعند ما عدنا اليوم إلى الفندق لتناول الغداء قلت لوالدى : « أظن أنى قد رأيت كل ما فى لندن . » فضحك وقال : « إنك لم ترَ شيئا بعد . وليست لندن بالمدينة التى ترى فى أسبوع . فهناك المتاحف الكثيرة والمعارض الموسمية ودور الآثار التاريخية ودور الكتب العامة وهناك الكنائس العظيمة والقصور البديعة ، مما أرجو أن يتسع وقتنا لزيارته . »